

رسالة "مناقب الترك وعامة جند الخلافة" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

دراسة تحليلية نصية

احمد غالب الخرشنة*

رعدة علي الزبون*

تاريخ القبول: ٢٠١٢/٥/٢٨

تاريخ تقديم البحث: ٢٠١١/١١/٢٧

ملخص

تقوم مادة هذا البحث على دراسة رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الموسومة بـ "مناقب الترك وعامة جند الخلافة" دراسة تحليلية نصية بغية الوقوف على أمرين، أولهما: يتعلّق بالمضمون وهو موقف الجاحظ من العناصر المتباينة التي جمعتها الخلافة العباسية تحت سيطرتها، ومحاولة التوفيق بينها من خلال الاعتراف بفضل كل منها على حدّ سواء، وبيان الخصال التي اشتهر بها كل عنصر وتميّز فيها في النواحي المختلفة، وثانيهما: يتعلّق بالأسلوب وهو الوقوف على أحد الأنماط التعبيرية الجديدة التي وظّفها الجاحظ عند تعبيره عن المعاني التي دارت رسالته حولها، متحرراً بذلك من الشكل المثالي الذي ظلّ يحكم فن الرسائل زمناً طويلاً، ومشيراً في الوقت ذاته إلى مدى ما أصاب الأساليب الفنية في عصره من تطوّرات واسعة أتاحت له أن يمضي بعيداً في ابتكار الوسائل الفنية الجديدة التي تعينه في التعبير عما يجول في ذهنه من معاني وأفكار يريد أن يوصلها إلى القارئ.

ABSTRACT

Abu Uthman Amr ibn Bahr al-Jahiz's message on Virtues of the Turks (manaqib al-Turk wa 'ammat jund al-khilafah)

This research aims at studying Abu Uthman Amr ibn Bahr al-Jahiz's message on Virtues of the Turks (manaqib al-Turk wa 'ammat jund al-khilafah) through analyzing the content and the style of the message.

The research sheds light on Al Jahiz's opinions towards various Abbasi period- related issues.

It also underlines a new stylistic way that was followed by Al Jahiz to convey meanings and ideas included in the message away from the traditional way of writing messages.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة العلوم الإسلامية.

مركز اللغات، جامعة العلوم الإسلامية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد:

فهذه دراسة لرسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الموسومة بـ "مناقب الترك وعامة جند الخلافة"، وهي دراسة تقوم على الوصف والتحليل، والمقارنة والاستنتاج بغية الوقوف على أبرز الأنماط الفنية التي اتبعتها الجاحظ للتعبير عن الأغراض التي عني بتناولها، فالجاحظ الذي يعدُّ من أئمة البيان العربيّ يمثل نقطة تحول في مسيرة النثر العربيّ لما لعبه من دور حاسم في توجيهه من حيث "الأسلوب والمضمون" أو "الشكل والموضوع"، أمّا من حيث الشكل فإننا لا نجد أدبيّاً برع في ابتداع الأشكال التعبيرية الجديدة في رسائله كما برع الجاحظ، فقد مضى هذا الأديب يصوغ رسائله في قوالب فنية مبتكرة تتأى عن الطابع التقليدي الذي ألقى بظلاله على فن الرسائل زمنياً طويلاً، فالناظر في رسائله لا يسعه إلا أن يلاحظ مدى اعتماده على المناظرة والمفاضلة والمحاورة والمخارجة والمفاخرة - كما هو في هذه الرسالة - للتعبير عن أغراضه، وأمّا من حيث الموضوع فقد تناول في رسائله جملة من القضايا السياسية والاجتماعية التي شهدها عصره.

ولهذا فإن أهمية هذه الدراسة تأتي من أهمية هذه الرسالة نفسها، إذ يعدُّ فن المفاخرة الذي بُنيت عليه الرسالة من أكثر الأساليب التعبيرية التي وجدها الجاحظ مناسبة لمعالجة القضية الأساسية التي كتب رسائله من أجلها ألا وهي محاولة التوفيق بين العناصر المتباينة التي جمعتها الخلافة العباسية آنذاك تحت سيطرتها، والمساواة بينها بالاعتراف بفضل كل منها على حدٍّ سواء، فقد استطاع الجاحظ بدقة ملاحظته أن يدرك التغيّر الذي بدأ يطرأ على النسيج الاجتماعي في عصره بعد أن دخل عليه عناصر غير عربية، وهو تغيّر تمثّل في الصراع العرقي بين العرب وهذه العناصر من جانب، وبين هذه العناصر مجتمعة من جانب آخر، إذ نهض كلُّ عنصر للدفاع عن فضائله ومآثره في وجه منافسيه، ونظراً لما يقوم عليه فن المفاخرة من تصارع وتنافس بين المتفخخين، ومحاولة كل طرف إحراز الغلبة والفوز بقصب السبق، فإنَّ الجاحظ اتخذ هذا الفن ليعبر عن قضيته من خلاله.

ولمّا كان هذا البحث موجّهاً إلى دراسة هذه الرسالة دراسة تحليلية نصية، فقد بات مسوغاً لنا أن نأخذ بالمنهج الوصفي التحليلي في سبر أغوار هذا النص وتبيين قسماته، فوقفنا على عنوان الرسالة وعلاقته بمضمونها، ومناسبة كتابتها، ومنهج الجاحظ في بنائها، ثم شرعنا بعد ذلك بالحديث عن مقدمة الرسالة وقسميها وما تضمناه من حديث عن مناقب ومفاخر كلِّ جند من جنود الخلافة العباسية، ووقفنا أخيراً على أثر ثقافة الجاحظ في البناء الفني للرسالة.

العنوان وعلاقته بالمضمون

عنون الجاحظ هذه الرسالة بـ (مناقب التُّرك وعامة جُند الخلافة)، والمناقب كما ورد في لسان العرب مفردتها منقبة، والمنقبة تشير إلى كرم الفعل، ويقال: إنه لكرم المناقب من النجّات وغيرها، والمنقبة: ضد المثلبة^(١)، وفي هذا المعنى اللُّغوي انسجام واضح بين عنوان الرسالة وموضوعها الرئيس؛ ذلك لأنّ الجاحظ قصر الحديث فيها على ذكر المناقب والفضائل التي تميّز بها التُّرك وعامة جُند الخلافة الذين تتشكّل منهم الجيش العباسي، وقد أشار إلى هذا في غير موضع من رسالته، نورد منها قوله: "وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمْل ما انتهى إلينا وبلغه علمنا"^(٢)، كما نبّه إلى أنه أعرض عن ذكر ما يسوؤهم وينقصهم - أي التُّرك وعامة جُند الخلافة - لا لأنهم اتّصفوا بالمحاسن وخلوا من المساوئ، وإنما لأنه يرى أنّ الناس يتفاضلون "بكثرة المحاسن وقلة المساوئ، فأما الاشتغال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوئ دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيّها، فهذا لا يُعرف"^(٣).

ومما يؤكد الترابط بين عنوان الرسالة ومضمونها حديث الجاحظ عن السبب الذي دفعه إلى الكتابة في مناقب التُّرك وعامة جُند الخلافة، وعن المنهج الذي سلكه في الحديث عن ذلك، ويتجلى ذلك بوضوح أيضاً من خلال الفكرة الرئيسة التي قامت عليها الرسالة (المناقب والفضائل) والأدوات التي وظّفها الجاحظ في ذلك، إذ شاعت في الرسالة طائفة من ألفاظ الفخر الجماعي الذي يفيد التملّك غالباً، من مثل: "ونحن، وبنا، ومنا، ولنا، وفينا"، ولا شك أنّ هذا النمط من الألفاظ يسهم في تحقيق الانسجام والترابط النصّي بين العنوان والموضوع.

مناسبة الرسالة

كتب الجاحظ هذه الرسالة لوزير المتوكّل الفتح بن خاقان^(٤)؛ ينتصر فيها لجُند الخلافة، بذكر فضائلهم وما تميّزوا به من مناقب ومآثر، وقد دفعه إلى ذلك ما أخبره به الفتح بن خاقان من حديث دار في أحد مجالسه، التي كان قد جالس فيها أخلاطاً من جُند الخلافة، وجماعة من أبناء الدّعوة

(١) انظر، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط.)، ٢٠٠١، مادة "نقب".

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ: تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١، ٨٦/١.

(٣) المصدر نفسه، ٣٧/١.

(٤) الفتح بن خاقان (توفي ٢٤٧هـ - ٨٦١م): هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد: أديب، وشاعر، وفصيح، كان في نهاية الفتنه والذكاء، فارسي الأصل، من أبناء الملوك، اتخذ المتوكل العباسي أخاً له، واستوزره وجعل له وزارة الشام على أن ينيب عنه، وكان يقدمه على جميع أهله وولده، اجتمعت له خزنة كتب حافلة من أعظم الخزائن. (انظر، الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م، ١٣٣/٥).

وشيوخاً من جلة الشيعة، وأن رجلاً من عُرُض تلك الجماعة تعسّف في حديثه عن جند الخلافة، وذلك بجعلهم في أقسام خمسة: خُرَاسانيّ، وتركيّ، ومولّي، وعربيّ، وبنوي^(١).

وقد أثار ذلك التقسيم غضب الفتح بن خاقان فاعترض على "هذا المُتكلّم المُستبدّ، وعلى هذا القائل المُتكلّف، الذي قسّم هذه الأقسام، وخالف بين هذه الأركان، وفضّل بين أنسابهم، وفرّق بين أجناسهم، وباعد بين أسبابهم"^(٢)، ويشير الجاحظ - بناءً على ما أخبره به الفتح - إلى هدف ذلك الرَّجُل من تقسيم جند الخلافة والحديث عن أصولهم وأنسابهم، وإلى هدفه - أي الفتح - من الردّ عليه بذكر مناقب الجميع وفضائلهم، فيقول: "وزعمت أنّه أراد الفرقة والتّحزيب، وأنك أردت الألفة والتّقريب"^(٣)، ويذكر أنّ للفتح هدفاً آخر من حديثه عن مناقب جند الخلافة أخبره به، يتملّ في رغبته بنصرة الخليفة والدّود عن مُلكه، وعن هذا يتحدّث الجاحظ، فيقول: "ثمّ أعلمتني بذلك أنّك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك، وإياها حطّت بحياطتك لأشياعه، واحتجاجك لأوليائه، ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطّاعة، والمؤازرة على الخير، والمكانفة لأهل الحقّ"^(٤).

وأما هدف الجاحظ نفسه من كتابة رسالته وما تضمنته من حديث عن مفاخر ومناقب للترك خاصّة ولجند الخلافة عامّة، فيتملّ في أمرين، أولهما: بيان مناقب الترك ومآثرهم؛ لأنّ من قسّم جند الخلافة "ذكر جُملاً من مفاخرة الأجناس، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف، وأنّه جمع ذلك وفصله وفسّره، وأنّه ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم، وأضرب عنهم صفحاً فلم يُخبر عنهم كما أخبر عن حجة كلّ جيل، وعن بُرهان كلّ صنف"^(٥).

وثانيهما: رغبته في توحيد جند الخلافة، ويظهر هذا في قوله: "وكتابتنا هذا إنّما تكلفناه لنؤلّف بين قلوبهم التي كانت مختلفة، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة، ولنُخبر عن اتّفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم"^(٦)، وهكذا فإنّ الجاحظ والفتح يلتقيان في حديثهما عن مناقب جند الخلافة عند هدف واحد، يتملّ في محاولتهما إثبات التّئام شمل تلك العناصر وتوحّدها على الرغم من اختلاف أصولها

(١) انظر، رسائل الجاحظ، ١/ ٨-٩. والبنوي: نسبة إلى واحد الأبناء، وهم قوم من أبناء فارس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن حين جاء يستتجد على الحبشة، فنصروه وملكوا اليمن وتديروها وتزوجوا في العرب فقيل لأولادهم الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم؛ لأنّ أمهاتهم من غير جنس أبائهم. انظر، ابن منظور: لسان العرب، مادة (بنو).

(٢) المصدر نفسه، ٩/١.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ١٢.

(٤) المصدر نفسه، ١/ ٨.

(٥) المصدر نفسه، ١/ ١٤.

(٦) رسائل الجاحظ، ١/ ٢٩.

ومنابتها، وقد أشار الجاحظ إلى هذه الغاية في غير موضع من رسالته، كما في قوله: "وقد ظنَّ ناسٌ أنَّ أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت في الصُّورة والخطِّ والهجاء، أنَّ حقائقها ومعانيها على حسب ذلك، وليس الأمر على حسب ما توهمه، ألا ترى أنَّ اسم الشَّاكِرِيَّة^(١) وإن خالف في الصُّورة والهجاء اسم الجُنْد فإنَّ المعنى بينهما ليس ببعيد؛ لأنَّهم يرجعون إلى معنى واحد وعمل واحد، والذي إليه يرجعون طاعة الخلفاء وتأييد السلطان"^(٢).

ولعلَّ من الأهداف الأخرى التي دفعت الجاحظ إلى الحديث عن مناقب التُّرك وعامة جُنْد الخلافة محاولته إخماد نار الفتنة والفرقة والردَّ على من حاول إثارتها بين هذه الأقوام، بإعطاء كلِّ قوم منهم حقَّهم بذكر ما تميَّزوا به من فضائل، وإلغاء ما بينهم من فوارق في اللون واللغة والنسب، وذلك بجعل "رابطة الإنسانيَّة هي التي تربطهم وتجمع بينهم"^(٣).

ومع وضوح هدف الجاحظ في هذه الرِّسالة كما بيَّنا سابقاً، ورغم إقراره - في الرِّسالة نفسها - أنَّه لا يودُّ أن يسلك مذاهب الجدل والمراء واستعمال الهوى^(٤) إلا أنَّ هناك من يشكُّك في غايته من هذه الرِّسالة، ويتهمة بالرياء والتَّمَلُّق والمداراة، وممن ذهب هذا المذهب أحمد أمين في كتابه "ظهر الإسلام" إذ يقول في هذا الجانب: "وقد استعمل الجاحظ عقله وقلمه وفلسفته في إعلاء شأن التُّرك تقريباً لذوي النفوذ، وإظهاراً لمزيتة البلاغيَّة، بقطع النظر عن كونه يعتقد ما يقول أو لا يعتقد"^(٥)، ويضيف: "ولكنه - أي الجاحظ - بسط مناقب التُّرك وبالح في إعلاء شأنهم، وأسبغ عليهم بقلمه السيِّال، وأسلوبه الواسع عظمة وأبهة تكفيان في إشعار القارئ أنَّ التُّرك أعظم جند، وأشجع قوم، فهو بهذا الأسلوب الماكر رفع شأن التُّرك ووضع من غيرهم تحت ستار الدَّعوة إلى الألفة"^(٦). والذي نراه أنَّه قد يكون من أهداف الجاحظ الخاصة في هذه الرِّسالة التَّقرُّب من ذوي النفوذ والسلطان كما أشار أحمد أمين، ولكنَّ هذا لا ينفي الأهداف الأخرى - التي ذكرناها آنفاً - أو يتعارض معها، فالجاحظ عندما يتحدَّث عن مناقب التُّرك لم يعرض لمثالب غيرهم من جُنْد الخلافة، بل وقف على مناقب الجميع وعدَّدها، مفصلاً في مناقب التُّرك على وجه مخصوص وموجزاً في

(١) الشَّاكِرِيَّة: ضرب من الجنود، (انظر، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٩، ١٣٠/٢).

(٢) رسائل الجاحظ، ١/ ٣٠،

(٣) بو ملح، علي: المناحي الفلسفيَّة عند الجاحظ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص ٤٢٢.

(٤) انظر، رسائل الجاحظ، ١/ ٣٠.

(٥) أمين، أحمد: ظهر الإسلام، مطبعة خلف، القاهرة، (د.ط)، ١٩٥٨، ١٤/١. وانظر، كتاجي، زكريا: التُّرك في مؤلَّفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الإسلاميَّ حتى أواسط القرن الثالث الهجري، دار الثقافة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص ١٢.

(٦) أمين، أحمد: ظهر الإسلام، ١/ ١٥.

الوقت نفسه الحديث عن بعض عناصر الخلافة، وهذا أمر واضح في رسالته، وهو ما جعل أمين يذهب ذلك المذهب، ولكن للجاحظ ما يسوغ ذلك؛ فهو كان قد تحدّث عن مناقب الترك وحدهم زمن المعتصم، أي قبل أن يعرض لمناقب عامة الجند، فكان المجال أمامه مفتوحاً ليتحدّث عن الترك حديثاً مفصلاً، وربّما لم تُتَح له هذه الفرصة عندما جاءت مناسبة الحديث عن مناقب الجند الآخرين، فجاء حديثه عنهم موجزاً في بعض الأحيان.

منهج الجاحظ في بناء الرسالة

تقسم رسالة مناقب الترك زمنياً إلى قسمين: الأوّل كتبه الجاحظ في خلافة المعتصم، والثاني كتبه في خلافة المتوكّل، أمّا القسم الذي كتبه في زمن المعتصم فتحدّث فيه عن مناقب الترك وحدهم، وأشار إلى أنّه لم يصل إلى المعتصم، فقال: "هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيّام المعتصم بالله - رضي الله عنه - فلم يصل إليه لأسباب يطول شرحها، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها"^(١)، فالجاحظ لم يفصح عن الأسباب التي حالت دون وصول رسالته للمعتصم، ولكن ربّما تعود تلك الأسباب إلى الجو السياسي المعادي للأتراك في ذلك الوقت؛ إذ إنّ من " المؤكّد أنّه لما قدّم الأتراك إلى بغداد حسدهم بعض الناس ولاسيّما الذين يشغلون المناصب العالية من الأمراء والوزراء والقوّد ومن تبعهم من الجنود وعوام الناس، حتى أصبحوا لا يرون بأساً من قتل الأتراك حتّى في بيوتهم وإبعادهم عن ديارهم"^(٢)، ففي مثل هذا الجو المعادي للأتراك الذين لم يقو نفوذهم بعد لم يجد الجاحظ الفرصة مواتية لإيصال رسالته للمعتصم، إذ إنّ لا يأمن " جانب أسياده من العرب الذين اجتمعوا حول المعتصم وتعصّبوا لقوميّتهم أكثر من النظر في مصالح الدّولة برجاجة عقل ورحابة صدر، فمن الطّبيعي أن ينصرف الجاحظ عن فكرة نشر الكتاب ولعلّه أبقاه طيّ الكتمان في انتظار فرصة صالحة لإبرازه"^(٣)، ولم تتحقّق تلك الفرصة أمام الجاحظ إلا في عهد المتوكّل، حيث "بلغت سيطرة الترك أوجها، وكثير منهم تولوا المناصب العالية في الجيش والحكومة"^(٤).

وأما القسم الثاني من الرسالة فقد كتبه الجاحظ في زمن المتوكّل للوزير الفتح بن خاقان، وتحدّث فيه عن مناقب عناصر جند الخلافة الأخرى: الخراسانيّ، والمولى، والعربيّ، والبنويّ، ومع أنّ الجاحظ كتب عن مناقب الترك في زمن المعتصم، إلا أنّه أحرّ الحديث عنهم في هذه الرسالة، مقدّماً عليه الحديث عن مناقب جند الخلافة الآخرين، دون أن يذكر لنا أسباب هذا التأخير، وربّما يعود

(١) رسائل الجاحظ، ١/ ٣٦.

(٢) كتابي، زكريا: الترك في مؤلفات الجاحظ، ص ٢١٨.

(٣) رسائل الجاحظ، ص ٢١٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

سبب ذلك إلى رغبته في استيفاء الحديث عنهم من جوانبه كافة، فهو لم يجد من ينتصر لهم في المفارقة التي تكلم فيها جند الخلافة على مناقبهم، فأراد أن يتحدث عنهم حديثاً وافياً يتناول فيه تميزهم في جوانب عدة: عسكريّة، ونفسيّة، وخلقية، وخلقية.

وتحدّث الجاحظ عن المنهج الذي اتّبعه في سبيل تحقيق الغاية التي من أجلها كتب رسالته، فأشار إلى أنه لم يتبع سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم^(١)، وذلك لأنه أراد أن يكون "كتاباً قصداً، ومذهباً عدلاً، ولا يكون كتاب إسراف في مديح قوم، وإغراق في هجاء آخرين"^(٢)، ولكي يتمكن الجاحظ من تحقيق هذه الغاية، والغاية الأخرى التي من أجلها كتب رسالته هذه، وهي التّأليف بين قلوب جند الخلافة والحفاظ على وحدة صفهم واجتماع كلمتهم، ابتعد عن ذكر المثالب، واكتفى بذكر المناقب التي اتّصفوا بها، وعن منهجه هذا يقول: "وأفنع المدائح للمدح وأجداها على الممدوح، وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً، أن يكون المديح صدقاً، وللظاهر من حال الممدوح موافقاً، وبه لائقاً ... وأنا أقول: إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراك إلا بذكر مثالب سائر الأجناد، فترك ذكر الجميع أصوب، والإضراب عن هذا الكتاب أحزم، وذكر الكثير من هذه الأصناف بالجميل، لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح، لأنّ ذكر الأكثر بالجميل نافلة، وباب من التّطوّع، وذكر الأقلّ بالقبيح معصية، وباب من ترك الواجب، وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التّطوّع"^(٣)، فالجاحظ يوضّح هنا أنه لا يريد أن يعلي من شأن قوم على حساب آخرين بذكر مثالبهم ومساوئهم.

وأشار الجاحظ إلى المصادر التي اعتمد عليها في حديثه عن مناقب التّرك وعامة جند الخلافة، فقال: "سنذكر جُملاً من أحاديث روينها ووعيناها، وأمور رأيناها وشاهدناها، وفضائل تلقّناها من أفواه الرّجال وسمعناها"^(٤)، وقد عرض ما وصله من روايات وأخبار - سماعاً أو مشاهدة - على لسانه حيناً، وعلى ألسنة من أخذ عنهم: كالفتح بن خاقان، وثمامة بن أشرس^(٥) وغيرهما حيناً آخر^(٦). وحاول أن يزيد من ثقة المتلقّي بصحة ودقة ما رواه من أخبار وآراء عرضها في ثنايا رسالته، ولهذا نجده يعلّق على بعضها، فما هو يعبر عن ثقته برأي ثمامة في التّرك، ويصفه

(١) انظر، المصدر نفسه، ٢٩ / ١.

(٢) المصدر نفسه، ٣٦ / ١.

(٣) المصدر نفسه، ٣٦-٣٧.

(٤) رسائل الجاحظ، ٢٩/١.

(٥) ثمامة بن أشرس: (توفي ٢١٣هـ - ٨٢٨م) هو ثمامة بن أشرس النميري، أبو معن: من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين، كان له اتصال بالرشيد، ثمّ بالمأمون، من تلاميذه الجاحظ، وأراد المأمون أن يستوزره فاستعفاه، وعدّه المقريري في رؤساء الفرق الهالكة، وأتباعه يسمون "الثمامية" نسبة إليه. (انظر، الزركلي: الأعلام، ١٠٠/٢).

(٦) انظر، رسائل الجاحظ، ٣٩/١.

بالصدق فيقول: "فهذا ثمامة بن أشرس، وهو عربي لا يُتهم في الإخبار عنهم"^(١)، ونجده ينقل إعجاب الخليفة المأمون برأي حميد^(٢) في الترك ومدحه له، ووصفه بأنه ثقة، فيقول: " فلماً انتهى الخبر إلى المأمون قال: ليست بالترك حاجة إلى حكم حاكم بعد حميد، فإن حميداً قد مارس الفريقين، وحميد خراساني، وحميد عربي، فليس للثمة عليه طريق"^(٣).

ويشير الجاحظ إلى أنه ينقل عن أهل الخبرة والدراية فيما ينقل، فيقول: " وقال سعيد بن عقبة بن سلم الهنائي"^(٤)، وكان ذا رأي في الحرب وابن ذي رأي فيها"^(٥).

ومما تقدم نلاحظ أن الجاحظ حاول أن يثبت موضوعيته في حديثه عن مناقب الترك وعامة جند الخلافة، فنقل ما سمعه من غيره وما شاهده بنفسه، وأشار إلى ثقته وتثبتته من صحة الأخبار والآراء التي أوردها؛ حتى لا يترك مجالاً للشك في أنه يبالي بما يقول أو أنه غير صادق فيه.

وأما تسلسل الرسالة من حيث المضامين فيمكن جعلها في قسمين رئيسيين عدا المقدمة، تناول الجاحظ في القسم الأول ردّ الفتح بن خاقان على المعارض الذي قسم جند الخلافة إلى خمسة أقسام، وحاول التفريق بينهم، كما تناول فيه مفاخرة الجند، وفي القسم الثاني تناول الحديث عن مناقب الترك، وفيما يأتي تحليل لهذه المضامين.

مقدمة الرسالة

افتتح الجاحظ رسالته بمقدمة دعائية، دعا فيها الله تعالى أن يوفق الوزير الفتح بن خاقان للرشد، وأن يصلحه ويصلح على يديه، وأن يجعله ممّن يقول بالحق ويعمل به، وألمح الجاحظ في هذه المقدمة إلى غايته والفتح، فأشار إلى أنهما يطلبان الحق، ويهدفان إلى كشف القناع عنه، وإيصاله إلى أهله^(٦)، والحق الذي يريده الجاحظ والفتح - كما تبين سابقاً - هو توحيد صف جند الخلافة، والتأليف بين قلوبهم، والرد على من حاول إثارة الفتنة والعصبية بينهم.

(١) المصدر نفسه، ٦١/١.

(٢) حميد بن عبد الحميد: (توفي ٢١٠هـ - ٨٢٥م) هو حميد بن عبد الحميد الطوسي، من كبار قواد المأمون العباسي، كان جباراً فيه قوة وبطش، وكان المأمون يندبه للمهمات. (انظر، الزركلي: الأعلام، ٢/٢٨٣، والطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٩٩١/١٧٢).

(٣) رسائل الجاحظ، ٥٦/١.

(٤) نسبة إلى بني هناة بن مالك بن فهم بن دوس، و(الهناة): بقية الهناء، وهو القطران الذي تُهنا به الإبل. (انظر: ابن دريد الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن: كتاب الاشتقاق، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة المثنى، بغداد، ط ٢، ١٩٧٩م، ص ٤٩٨).

(٥) رسائل الجاحظ، ٥٦/١.

(٦) انظر، رسائل الجاحظ، ٥/١.

ويعبر الجاحظ في هذه المقدمة عن إعجابه بولاء الفتح للخليفة المتوكل، وحرصه على سلامة بنيان حكمه من الخلل وإن كان صغيراً فيقول: "وقد أعجبتني ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك، والمحاماة لتدبير خليفتك، وإشفاقك من كل خلل وخلّة دخل على ملكه وإن دق، ونال سلطانه وإن صغر، ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه، وجانب رضاه وإن قل ضرره"^(١).

ويرسم الجاحظ في مقدمة رسالته صورة واضحة لعلاقة الرعية بالسلطة، والأسباب التي تؤدي إلى توتر العلاقة بينهما، وتولد حقد الرعية على السلطة وتدفعها إلى تتبع عيوبها، فيقول: "فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معدول عن الحكم زار، ومن متعطل متصفّح، ومن معجب برأيه ذي خطل في بيانه، مولع بتهجين الصواب، وبالاغتراض على التدبير ومن محروم قد أضغنه الحرمان، ومن لنيم قد أفسده الإحسان، ومن مستبطن قد أخذ أضعاف حقه، وهو لجهله بقدره، ولضيق ذرعه وقلة شكره، يظن أن الذي بقي له أكثر، وأن حقه أوجب ومن صاحب فتنة خامل في الجماعة، رئيس في الفرقة...."^(٢)، وبعد أن سرد الجاحظ الأسباب التي تولّد حقد الرعية وعداوتها للسلطة، أشار إلى وجود صنف آخر من الرعية موالٍ للسلطان، مدافع عنه أمام تلك الفئة المعادية، ومثل على هذا الصنف من الرعية بالفتح الذي وقف بنفسه أمام أعداء السلطان، مدافعاً عنه ومُعظماً له، وحافظاً لمناقب أوليائه^(٣)، وعلّل سبب اختياره للفتح نموذجاً لهذه الفئة الموالية، فقال: "وقد استدلت بالذي أرى من شدة عنايتك، وفرط اكراتك، وتفقدك لأخبار الأعداء، وبحثك عن مناقب الأولياء، على أن ما ظهر من نصحك أمم"^(٤) في جنب ما بطن من إخلاصك"^(٥).

ولم يأت حديث الجاحظ عن علاقة الرعية بالسلطة إلا تمهيداً للدخول في موضوع الرسالة، المتمثل بالحديث عن مناقب الترك وعامة جند الخلافة، إذ بدأ بعرض ردّ الفتح على من حاول التعريض بالخلافة، وذلك بتقسيم جندها المتحدين تحت لواء واحد إلى أجناس متباينة، ثم عرض لرأي ذلك المعرض من خلال المفاخرة التي أجراها على السنة جند الخلافة، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مناقب الترك ومآثرهم.

(١) المصدر نفسه، ٦ / ١.

(٢) المصدر نفسه، ٧ - ٦ / ١.

(٣) انظر، رسائل الجاحظ، ٨ / ١.

(٤) الأمم: الشيء اليسير (انظر، لسان العرب، مادة أمم).

(٥) رسائل الجاحظ، ٨ / ١.

أقسام الرسالة:القسم الأول:أ - ردّ الفتح بن خاقان

لقد أبان الجاحظ في رسالته عن موقف الفتح ممّا ذهب إليه ذلك المُعرّض، فذكر أنّ الفتح أنكر ما جاء به، وحاول أن يثبت وجود رابطة بين جُند الخلافة وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم، وتعدّدت مشاربهم، وفي بيان هذا الموقف يقول: "وأَنَّكَ أنكرتَ ذلكَ عليه أشدَّ الإنكار، وقذعته أشدَّ القذع"^(١)، وزعمتَ أنّهم لم يخرجوا من الاتفاق،.... وَأَنَّكَ أنكرتَ التباعُدَ في النسب، والتبايُنَ في السبب"^(٢)، إذ أكّد الفتح - كما يذكر الجاحظ - أنّ لا فرق بين الخُرّاسانيّ والتركيّ، والاختلاف الذي بينهم لا يشبه الاختلاف ما بين الأجناس المتباعدة كالرُوميّ والصّقليّ، والزنجيّ والحبشيّ، وإنما اختلافهم كاختلاف الجنس الواحد المتعدّد الفروع، وكلّهم خُرّاسانيّ في الجُملة، وإن تميّزوا ببعض الخصائص، وافترقوا ببعض الوجوه"^(٣)، ومثّل على ذلك بالاختلاف الذي بين المدنيّ والمكيّ، والبدويّ والحضريّ"^(٤)، فهو يشير إلى أنّ الاختلاف من طبائع الأشياء حتّى وإن كانت متقاربة ومتشابهة.

ثم مضى الفتح سادراً في إثبات الرابطة التي تجعل أنساب جُند الخلافة جميعها متقاربة غير متباعدة، فقال: "إنّ البنويّ خُرّاسانيّ، وأنّ نسب الأبناء نسب آبائهم، وأنّ حُسْنُ صنيع الآباء، وقديم فعال الأجداد، هو حسب الأبناء، وأنّ الموالي بالعرب أشبه، وإليهم أقرب، وبهم أَمْسُ"^(٥)، وحاول أن يثبت هذا الرأْيَ دينيًّا، فأشار إلى أنّ السُنّة جعلت الموالي من العرب، وذلك إمّا بالولاء وإمّا بالحلف، واستشهد على هذا بقوله عليه الصلّاة والسّلام: "مولى القوم منهم"، وبقوله: "الولاء لِحُمة كُلِّ حُمةِ النّسب"، وبقوله أيضاً: "منا خير فارسٍ في العرب: عُكاشة بن مِحْصَن"^(٦)، فقال ضرار بن

(١) قَذَعَهُ يَقْذَعُهُ قَذْعًا: رماه بالفُحش وأساء القولَ به، والقَذْعُ: الفُحش في الكلام الذي يقبح ذكره (انظر، لسان العرب، مادة قَذَعَ).

(٢) رسائل الجاحظ، ٩ / ١.

(٣) المصدر نفسه، ١٠ / ١.

(٤) انظر، رسائل الجاحظ، ١٠ / ١.

(٥) المصدر نفسه، ١٢ / ١.

(٦) عُكاشة بن مِحْصَن (توفي ١٢هـ - ٦٣٣م): هو عُكاشة بن مِحْصَن بن حرثان الأسدي، من بني غنم: صحابي من أمراء السرايا، يعدُّ من أهل المدينة، شهد المشاهد كلها مع النبي صلّى الله عليه وسلّم، وقُتل في حرب الردّة ببزاجة (بأرض نجد) قتله طليحة بن خويلد الأسدي. (انظر، الزركلي: الأعلام، ٤/ ٢٤٤).

الأزور الأسديّ: ذاك رجلٌ منّا يا رسول الله، قال: بل هو منّا بالحلف^(١)، فجعل حليف القوم منهم، كما جعل ابن أخت القوم منهم^(٢).

وبعد هذا، يخلص الفتح في خاتمة ردّه على ذلك المُعرّض إلى نتيجة مفادها: "أنّ أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكاتفة، والطّاعة والمناصحة، والمحبة للخلفاء والأئمّة"^(٣)، وهذه النتيجة هي الهدف الذي ابتغى الفتح إيصاله لمن عرض بجند الخلافة.

ب - مفاخرة جُند الخلافة

لعلّ أبرز ما تميّز به القسم الأوّل من الرّسالة اتّخاذ الجاحظ المفاخرة شكلاً تعبيرياً للحديث عن مناقب جُند الخلافة وتعداد مفاخرهم وفضائلهم؛ وذلك لاتّصال هذا الفن الأدبي بطبيعة الموضوع الذي بنى عليه رسالته، نقصد (المناقب والفضائل)، ذلك أنّ المفاخرة "تقوم أساساً على إظهار تفوّق الصفّات الماديّة أو المعنويّة لشخصٍ على آخر، أو لمدينةٍ على أخرى، أو لحيوانٍ على آخر، أو لنباتٍ على آخر، أو لشعبٍ على آخر، أو لعرقٍ على آخر"^(٤)، ويشير محمّد الدّروبي إلى أنّ ما يميّز موضوع المفاخرة - كما هو واضح من عنوانها - اتّصاله بتعداد المحاسن والمآثر، والمباهاة بالأحساب والأنساب، وقيامه على العصبية العمياء التي تجعلهم المفاخر مصروفاً إلى إثبات ما لقومه من مناقب تجعلهم في نظره أسمى خلق الله، وأحقهم بالأثرة وسُمو المنزلة^(٥)، وقد شكّلت هذه المفاخرة الفكرة الرئيسة التي بنى الجاحظ رسالته عليها، إذ قصر حديثه فيها - كما أسلفنا - على المفاخر والمآثر التي امتاز بها التُّرك وعامّة جند الخلافة.

وممّا تجدر الإشارة إليه قبل أن نشرع بعرض مفاخرة جُند الخلافة، أنّه يغلب على المفاخرة أن تكون حكايةً مُتخيّلة من قِبل المؤلّف، يضع فيها الأحاديث على ألسنة المتفانين، ويعيرهم آراءه ومعارفه^(٦)؛ ولا يرمي من خلالها إلا إلى إبراز مقدّراته على إتقان هذا النمط من أنماط التعبير، على أنّ ثمة غاية أخرى كان الجاحظ يسعى إلى تحقيقها من خلال هذه المفاخرة، وتتمثل

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، خرّج أحاديثه: محمد بيومي، وعبد الله المنشاوي، ومحمد مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة، (د.ط)، (د، ت)، ٢٨٧/٣.

(٢) انظر، رسائل الجاحظ، ١٢/١-١٣.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ١٤.

(٤) الصّديق، حسين: المناظرة في الأدب العربيّ والإسلامي، الشّركة المصريّة العالمية للنشر، لونغمان، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٩٦.

(٥) انظر، الدّروبي، محمّد: الرّسائل الفنيّة في العصر العبّاسيّ حتّى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ١٩٩٩، ص ٤٠٩-٤١٠.

(٦) انظر، المصدر نفسه، ص ٤١٠، وانظر، الصّديق، حسين: المناظرة في الأدب العربيّ والإسلامي، ص ١٩٦.

هذه الغاية في "تشكيل رؤية نقدية عن أهم الطوائف الاجتماعية التي كان يتألف منه مجتمعه آنذاك"^(١)، ونحن إذا ما نظرنا في مضامين هذه المفاخرة التي استغرقت معظم صفحات الرسالة وجدنا أنها ركزت على تفوق المتفافرين من الناحية العسكرية والقتالية، حتى إنها كانت " أشبه بمجمّع عسكري يناقش قدرات الجند ويدقق النظر في فعاليتها نحو مواقف حربية يقدرون حدوثها"^(٢)، ولم يقتصر الجاحظ في هذه المفاخرة على هذا الجانب فحسب، وإنما عرض لجوانب أخرى: جسميّة، وخلقية، ومهنيّة.

بنى الجاحظ مفاخرته على أربعة أدوار، يمثل كل دور منها عنصراً من عناصر جند الخلافة التي شكّلت مادة الجيش العباسي، فالدور الأول يؤديه الخراساني، والدور الثاني يؤديه العربي، والدور الثالث يقوم به الموالي، بينما يؤدي الدور الرابع البنوي، وقد وفر هذا الأمر للرسالة بناءً شكلياً جديداً استطاع أن يحررها من الشكل المثالي الذي ألقى بظلاله على معظم رسائل هذا العصر، ولعلّ دراسة هذه المفاخرة الرباعية تعدّ كافية للوقوف على ملامح هذا الأسلوب البنائي الجديد الذي وظّفه الجاحظ في رسالته، إذ تبدأ المفاخرة بذكر الخراسانيين مناقبهم ومآثرهم المتعددة، بغية إظهار تميّزهم وتفوّقهم على بقية عناصر جند الخلافة، فهم يجعلون نصرتهم لبني العباس في طليعة تلك المناقب والمآثر التي يعتدّون بها، إذ يفتخرون - بداية - بحملهم راية الدعوة العباسية في مراحلها السريّة، وسيطرتهم على تنظيمات هذه الدعوة، وحضورهم الفاعل في سائر مجموعاتها، وفي مراحلها كافة، فيقولون في هذا: "نحن النُقباء وأبناء النُقباء، ونحن النُقباء وأبناء النُقباء، ومِنّا الدُّعاة قبل أن تظهر نَقابة، أو تُعرف نَجابة، وقبل المغالبة والمباراة، وقبل كشف القناع وزوال النقيّة، وزوال مُلك أعدائنا عن مُستقره، وثبت مُلك أوليائنا في نصابه،... ومِنّا الاثنا عشر النُقباء، والسبعون النُقباء"^(٣)، وفي السياق ذاته يفتخر الخراسانيون بانطلاق الثورة العباسية من بلادهم، فهم كما يقولون: "أهل هذه الدولة، وأصحاب هذه الدّعوة، ومنبت هذه الشجرة، ومن عندنا هبّت هذه الرّيح"^(٤)، وليس هذا فحسب، بل إنهم يعدّون أنفسهم شيعة العباسيين وأهل دعوتهم وحملة راياتهم السوداء ويرون أنّ نصرتهم للعباسيين تشبه نصرة أهل المدينة المنورة للرّسول - صلّى الله عليه وسلّم - فالأنصار - في رأيهم - أنصاران: الأوس والخزرج نصروا النبي - صلّى الله عليه

(١) الذروبي، محمد: الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤١٠.

(٢) عويس، محمد: المجتمع العبّاسي من خلال كتابات الجاحظ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٧، ص ١١٥.

(٣) رسائل الجاحظ، ١ / ١٤.

(٤) المصدر نفسه، ١ / ١٥.

وسلم - في أول الزمان، وأهل خراسان نصرُوا ورثته في آخر الزمان^(١)، ويشير الخراسانيون في هذا الصدد إلى فضلهم في قتال عساكر الأمويين والقضاء على ملكهم وخلافتهم، فيقولون: "وبنا شفى الله الصدور، وأدرك الثأر، ... ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد، وأبدنا العدو بكلِّ وادٍ"^(٢)، ولا يفوتهم أن يذكروا ما تعرّضوا له في سبيل نجاح هذه الدعوة من قتل وتشريد وضرب وعذاب على أيدي بني أمية، ويقولون في هذا: "وبين ذلك ما قُتلنا وشُرِّدنا، ونهكنا ضرباً، وبُضِعنا بالسُّيوف الحداد، وعُذِّبنا بألوان العذاب"^(٣)، ويمضي الخراسانيون في تأكيد فضلهم على العباسيين ومساندتهم لهم في إنهاء دولة الأمويين فيفتخرون بدورهم في إبادة الصَّحَّحِيَّة، والدَّالِقِيَّة، والذَّكْوَانِيَّة، والرائِشِيَّة^(٤)، كما يفتخرون بقتلهم لمشاهير قادة بني أمية وآخر خلفائهم مروان بن محمد^(٥).

ويورد الخراسانيون من جملة مفاخرهم على مَنْ سواهم من عناصر جند الخلافة ما توافر لديهم من مزايا وصفاتٍ عسكريَّة مختلفة تجعلهم أهل بأسٍ وشِدَّة وإقدامٍ في الحرب يواجهون عدوَّهم غير عابئين بضعف يصيبهم، أو هزيمة تلحق بهم، وأول هذه المزايا ما يتعلَّق ببناء أجسامهم وما تنماز به من قوَّة وضخامة وصلابة تمكّنهم من حمل السلاح، فيقولون: "ونحنُ قومٌ لنا أجسام وأجرام، وشعور وهام، ومناكب عظام، وجباه عراض، وقَصْرٌ"^(٦) غِلَاط، وسواعد طوال، وأشدُّ عصباً، وأتمُّ عظاماً، وأبداننا أحمل للسلاح، ولنا الأصوات التي تُسقط منها الحبالى"^(٧)، وثاني هذه المزايا العسكريَّة التي يعتدّون بها يتعلَّق بكثرة عددهم، تلك الكثرة الناجمة عن حبّهم للتكاثر، وعنايتهم بنماء النسل، مما وفرَّ لهم مادة للحرب، وجعلهم أكثر عدداً وعدَّة في ميادين القتال، وهم يعدّون هذه الوفرة العدديَّة منقبةً يفخرون بها على الأقوام البائدة المعروفة بكثرة عددها، كقوم يأجوج ومأجوج، فيقولون: "ونحن أولاد للذكورة، وأنسل بُعولة،، وأنتق أرحاماً، ونحن أكثر مادة، وأكثر عدداً وعدَّة، ولو أن يأجوج ومأجوج كاثروا من وراء النهر مِنّا لظهروا عليهم بالعدد"^(٨)، أمّا ثالث هذه المزايا فعائد إلى تنوُّع أدوات الحرب والقتال التي يستعملونها، وهم يقولون

(١) انظر، المصدر نفسه، ١ / ١٥.

(٢) المصدر نفسه، ١ / ١٤-١٥.

(٣) المصدر نفسه، ١ / ١٤.

(٤) فرق كلامية ظهرت في العصر الأموي. (انظر، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٣٥١/٤). والصَّحَّحِيَّة نسبة إلى صحصح وكان أحد المتكلمين (انظر، الجاحظ: الحيوان، ٣٩٥/٣).

(٥) انظر، رسائل الجاحظ، ١ / ١٧-١٨.

(٦) القَصْرَة بالتحريك جمع قصر: وهو العنق وأصل الرقبة (انظر، لسان العرب، مادة قصر).

(٧) رسائل الجاحظ، ١ / ١٨-٢٠.

(٨) المصدر نفسه، ١ / ١٨.

في هذا: "ولنا الطُّبول المَهُولَة العظام والبنود، ونحن أصحاب التَّجَافيف والأجراس، والبازيكند^(١)، واللُّبُود الطُّوال، والأعماد المُعَقَّفة،، والقلانس الشَّاشِيَّة، والخيول الشَّهْرِيَّة، والكافركوبات^(٢)، والطَّبْرزِينات^(٣) في الأكف، والخناجر في الأواسط، ولنا حُسْنُ الجِلْسَة على ظهور الخيل...."^(٤)، وفي الإطار نفسه يضيف الخُرَّاسانيون إلى ذلك مهارتهم في صناعة بعض أصناف الأسلحة وأدوات الحرب، إضافة إلى عنايتهم بالتمريعات العسكرية وتقننهم فيها.

ويسترسل الخُرَّاسانيون في تعداد مناقبهم ومآثرهم فيفتخرون بما حازوه من حُسْن الخلق وكرم الطبع، فهم أهل الحِلْم، ورجحان العقل، ورزانة الرأي، والبُعد عن الطيش، وهم أيضاً ذوو أمانة، وعَفَّة، وصبر على الخدمة، ونزاهة، وقناعة^(٥). ويختمون مفاخرتهم مُشِيدِينَ بما حُطُّوا به من التَّفَوُّق في مختلف ألوان العلوم والآداب، كالحساب والهندسة والموسيقى والفقه والرَّوَايَة^(٦)، إذ اجتمع عندهم مشاهير هذه العلوم الذين استطاعوا أن يسبقوا غيرهم من العلماء في هذه الميادين.

وبعد انقضاء تلك السلسلة الطويلة من مفاخر الخُرَّاسانيين التي يعتقدون أنَّهم بفضلها "أحقُّ بالأثرة، وأولى بشرف المنزلة"^(٧) تنتقل المفاخرة إلى العرب - الدور الثاني - وهم يفخرون بادئ ذي بدء بقرابتهم الثابتة للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - واتصال أرحامهم به - عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم - ويضيفون إلى ذلك فخرهم بأنهم أقدم الشعوب إسلاماً وتصديقاً بالدعوة، ويفخرون بعد ذلك بقدرتهم الفائقة على نظم الشعر الموزون المقفَّى الذي لا يفنى بل يبقى بقاء الدَّهر مُخلِّداً مآثرهم وأخبارهم، كما يعتدُّون بكلامهم المنثور، وقولهم المأثور^(٨)، فهم أُمَّة عُرِفَتْ بالفصاحة والبلاغة والبيان.

ويتابع العرب - إضافة إلى ما سبق - فخرهم واعتدادهم بما يعتقدون أنَّه يجلب إليهم الفضل والسبق على غيرهم، فيفخرون بمنافراتهم ومفاخراتهم وحفظهم لأنسابهم وحقوقهم، فيقولون في هذا

(١) البازيكند: ضربٌ من الثياب يُلقى على الكتف. (انظر، رسائل الجاحظ، ١٩/١).

(٢) الكافركوبات: جمع كافر كوب، وهي المقرعة. (انظر، رسائل الجاحظ، ٢٠/١).

(٣) الطبرزينات: جمع طبرزين، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس، (انظر، شير، أدبي: الألفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (د.ط)، ١٩٠٨م، ص ١١١).

(٤) رسائل الجاحظ، ١٩ / ١ - ٢٠.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ١٩ / ١.

(٦) انظر، رسائل الجاحظ، ١ / ٢٠.

(٧) المصدر نفسه، ٢١ / ١.

(٨) انظر، المصدر نفسه، ١ / ٢١.

المجال:" ونحن أصحاب التفاخر والتتافر، والتنازع في الشرف، والتحاكم إلى كل حكم مُقنع، وكاهن سَجَّاع، ولنا التعاير بالمثالب، والتفاخر بالمناقب، ونحن أحفظ لأنسابنا، وأرعى لحقوقنا،....." (١).

وينكر العرب على الخراسانيين فخرهم بالبراعة القتالية، مؤكدين أن أمر القتال تالد قديم عندهم، وطارف حديث عند الخراسانيين، كما أنهم يقاتلون عن رغبة، بخلاف أهل خراسان الذين يقاتلون عن رهبة (٢)، ولهذا فإنهم - أي العرب - أحق من غيرهم بالافتخار بهذا الباب. وليس هذا فحسب، وإنما أنكروا - أيضاً - ما ذهب إليه الخراسانيون من أنهم أهل الدعوة العباسية وشيعتها، ولدفع هذه الدعوى فإن العرب يفخرون بأن أكثر نقباء هذه الدعوة يرجعون في نسبهم إلى صميم العرب، ولتأكيد هذا الأمر ذكروا أسماء مجموعة من النقباء المنحدرين من أصول عربية كأبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي (٣)،.... وغيره الكثير من العرب الأقحاح (٤).

وأخيراً ينهي العرب مفاخرتهم - أيضاً - بالرد على الخراسانيين، منكرين دورهم في هزيمة الأمويين، وقتلهم أشهر قادتهم، وينسبون الفضل في هذا الجانب إلى أنفسهم، فيقولون: "وبعد، فمن هذا الذي باشر قتل مروان، ومن هزم ابن هُبيرة، ومن قتل ابن ضُبارة" (٥)، ومن قتل نباتة بن حنظله (٦)، إلا عرب الدعوة والصميم من أهل الدولة" (٧).

وسرعان ما يتلو هذا الدور الدور الثالث من المفاخرة الذي يؤديه الموالي، وهم يستهلون مفاخرتهم على غيرهم بما يتسمون به من خصال حميدة تتمثل في: إخلاص النصيحة، ورسوخ المحبة، وحصول الثقة، وسلامة الضمير من الحسد، والصبر لاسيما الصبر على إفشاء السر،

(١) المصدر نفسه، ٢٢ / ١.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ٢٢ / ١.

(٣) قحطبة بن شبيب الطائي (١٣٢هـ - ٧٤٩م): قائد شجاع، من ذوي الرأي والشأن، صاحب أبا مسلم الخراساني، وناصره في إقامة الدعوة العباسية بخراسان، وكان مظفراً في جميع وقائع، غرق في الفرات على أثر وقعة له مع ابن هبيرة. (انظر، الزركلي: الأعلام، ١٩١/٥، والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٣٣٩/٤ - ٣٤١).

(٤) انظر، رسائل الجاحظ، ٢٢/١.

(٥) عامر بن ضبارة (توفي ١٣١هـ - ٧٤٩م): هو عامر بن ضبارة الغطفاني ثم المري، أبو الهيثام، قائد من الفرسان الشجعان، من أهل حوران بالشام، انتدبه مروان بن محمد لقتال شيبان الخارجي، وجهز معه سبعة آلاف، فزحف بهم، فانهزم منه شيبان بعد وقائع، ثم سار عامر لقتال عبد الله بن معاوية الطالبي، الخارج بإصطخر، فتوفق، فوجه ابن هبيرة لقتال قحطبة بن شبيب فتقهقر جيش عامر وثبت في عدد قليل حتى قُتل. (انظر، الزركلي: الأعلام، ٢٥١/٣، والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٣٣٥/٤).

(٦) نباتة بن حنظلة (توفي ١٣٠هـ - ٧٤٨م): هو نباتة بن حنظلة الكلابي، من بني بكر بن كلاب، أحد القادة في العصر المرواني، قال ابن تقيية: كان فارس أهل الشام، وكان على المنجنيق يوم الكعبة، وجهه ابن هبيرة إلى فارس وأصيبه نجدة لنصر بن سيار على أبي مسلم الخراساني فمضى نباتة إلى الري ومنها إلى جرجان فاجتمع بنصر، وأقبل عليهما قحطبة بن شبيب في جيش فقاتلاه وقتل نباتة، فبعث قحطبة برأسه إلى أبي مسلم. (انظر، الزركلي: الأعلام، ٧/٨، والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٣٢٦/٤).

(٧) رسائل الجاحظ، ٢٢/١ - ٢٣.

والنقاني في الخدمة والطاعة، والإخلاص وحسن النية^(١)، ويجعلون هذه الخصال الكريمة سبباً في وثوق أسيادهم العرب بهم، وحرصهم على مواكبتهم، والجلوس إليهم، والاستئناس بهم، ويستشهدون على ذلك بإكرام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمولاه زيد بن حارثة حين عقد له الراية يوم مؤتة مع وجود جلة بني هاشم، ومثله إكرامه وحبّه - صلى الله عليه وسلم - لأسامة بن زيد، وهو الحبّ ابن الحبّ، حين عقد الراية له على عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار، ومنه ما سار عليه الخلفاء العباسيون من إكرام لمواليهم وتكليفهم بالصلاة على جنائز موتاهم على الرغم من حضور إخوانهم وأعمامهم وبني أعمامهم^(٢)، ونوّه الموالى إلى مشاركتهم في تنظيم الدعوة العباسية وخدمتهم وخدمتهم الخلفاء العباسيين، والإخلاص لدولتهم إلى أن تمّ نظامها واتسق أمرها، وذكروا في هذا السياق ثلّة من الموالى يعدّون من مشاهير نقباء الدعوة العباسية^(٣).

ويعتدّ الموالى بنسبهم أيما اعتداد، ولا يرون فيه ما يعيبهم، بل يجدون في هذا النسب شرفاً كبيراً، لأنّهم يتصلون بكلّ جنس من أجناس الخلافة بسبب، فيقولون: "فقد صار لنا النسب الذي يصوبه العربيّ، ولنا الأصل الذي يفخر به العجميّ،..... فلنا مناقب الخراسانية، ولنا مناقب الموالى في هذه الدعوة، ونحن منهم وإليهم، ومن أنفسهم، لا يدفع ذلك مسلم، ولا ينكره مؤمن،..... فقد شاركنا العربيّ في فخره، والخراسانيّ في مجده، والبنويّ في فضله، ثمّ تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه، ولا سابقونا إليه"^(٤)، وحجّة الموالى التي يستندون إليها أنّ الولاء لخدمة كلّمة النسب، وأنّ مولى القوم منهم، وأنّ شرف السيد راجع إلى مولاه، وكرمه زائد في كرم مولاه أيضاً^(٥).

ويختتم الموالى جملة مآثرهم بالحديث عن مشاكلتهم للرعيّة والتحلّي بطباعها، ورحمتهم بها، وعطفهم عليها، وما ينطوي عليه هذا الأمر من استئناس الرعيّة بهم، وسكنها إليهم، وحبّها لهم^(٦).

ويصل الجاحظ إلى الدور الرابع من أدوار مفاخرته فيورد مفاخر النبیین، وهم المؤلّدون من آباء فرس وأمّهات عربيّات، ومن تلك المفاخر التي يعتدّ البنويون بها أصلهم الخراسانيّ وفرعهم البغدادي، وخراسان - كما يرون - موطن الدولة العباسية، ومنبع دعوتها، ومنها تفجّر ينبوع هذه

(١) انظر، المصدر نفسه ، ٢٣/١.

(٢) انظر، رسائل الجاحظ، ٢٣/١-٢٤.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ٢٤/١.

(٤) المصدر نفسه، ٢٣/١-٢٥.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ٢٣/١.

(٦) انظر، المصدر نفسه، ٢٥/١.

الثورة، حتى انتهت إلى بغداد التي تعتبر خُراسان العراق وبيت الخلافة ومُسْتَقَرَّها، ولهذا فهم يفوقون الموالي والعرب بهذا الفضل والشرف^(١).

ويعنى البنويون في مفاخرتهم عنايةً كبيرةً بما امتازوا به من مواهب عسكرية ومهارات حربية مختلفة، فيفخرون بما يتحلّون به من صبر وثبات عند اشتداد المواجهة في ساحات القتال، وما عُرِفوا به من شجاعة وإقدام عند منازلة الأعداء، وخبرة ومهارة في قمع الثورات وأعمال الشغب، ويضيفون إلى ذلك اعتدادهم بقدرتهم على المقاتلة في أماكن مخصوصة ينفردون بها دون غيرهم من عناصر جُند الخلافة، كقتالهم عند أبواب الخنادق، وفوق رؤوس القناطر، وبين الأزقة، ووسط الأسواق والطرق، وفي الماء، وعلى الأرض، وفي القرية والمحلة، وفي الليل والنهار^(٢). ويشيرون إلى معرفتهم ببعض المهارات ذات العلاقة بالحرب ولوازمها، ومن هذه المهارات: القدرة على التسلُّق، ونقب المدن، وجرّ السلاح، ودقّ الجنادل، وهشم العُمد، والسير بين أطراف الرماح ووحده السيوف^(٣).

ولا يكتفي البنويون بهذا القدر من المفاخر، بل يضيفون إليها فخرهم ببنائهم الجسمية وسماتهم الخَلقية فهم مقارنة مع مَنْ سواهم من جند الخلافة "أفتك وأخشب،..... مع حُسْن القدود، وجودة الخِرط، ومقادير اللّحي، وحُسْن العِمّة، والنفس المُرّة..."^(٤)، ويذكرون إلى جانب هذه الصفات معرفتهم ببعض العلوم كالخطّ والكتابة، والفقه والرّواية^(٥). ويظهر من خلال حديثهم سيطرتهم التامة على بغداد، إذ يقولون: "ولنا بغداد بأسرها، تسكن ما سكنا، وتتحرك ما تحركنا، والدُّنيا كلّها مُعلّقة بها، وصائرة إلى معناها،...."^(٦)، ويختمون جملة مفاخرهم بصلتهم الوثيقة بالملوك والخلفاء والوزراء، فقد نشأوا في قصورهم، وتأدّبوا بآدابهم، وساروا على نهجهم، حتى أصبحوا لا يُعرفون بين الناس إلا بهم^(٧).

ج - رأي الجاحظ

لم يكتفِ الجاحظ في القسم الأوّل من رسالته بعرض ردّ الفتح بن خاقان على ذلك المُعرّض، ولا بالمفاخرة التي أدارها على ألسنة جُند الخلافة، وإنّما حرص على أن يعرض موقفه الشخصي من

(١) انظر، المصدر نفسه، ٢٥ - ٢٦.

(٢) انظر، رسائل الجاحظ، ٢٦ / ١ - ٢٨.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ٢٦ / ١.

(٤) المصدر نفسه، ٢٨ / ١.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ٢٨ / ١.

(٦) المصدر نفسه، ٢٨ / ١.

(٧) انظر، المصدر نفسه، ٢٨ / ١.

تعدّد هؤلاء الجُند، وأن يبيّن رأيه في هذه القضية مؤكّداً من جديد اتفاق الأعراق والأجناس التي تتألّف منها عناصر الخلافة بشكل خاص والدولة العباسية بشكل عام، فليس الاختلاف في الاسم دليلاً على الاختلاف في الحقيقة، بل إنّ هذا الاختلاف أمر طبيعي، ولهذا فإنّه ليس من الغريب أن ينسب للعرب من ليس منهم صليبية ومن تعايش معهم، وقد ساق الأدلّة المُقنعة في سبيل إثبات موقفه هذا، ومن جملة تلك الأدلّة نورد قوله: "وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني، ومجعولاً منهم في عامّة الأسباب، لم يكن ذلك بأعجب ممّن جعل الخال والداً، والحليف من الصّميم، وابن الأخت من القوم،... وقد جعلوا إسماعيل وهو ابن عجميّين عربيّاً، لأنّ الله تعالى فتق لهاته بالعربيّة المبيّنة على غير التلقين والترتيب، ثمّ فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشو والتّقدير، وسلخ طباعه من طبائع العجم،..."^(١).

ويدافع الجاحظ عن رأيه بكلّ ما ملك من حيلة، ويحتجّ له بكلّ ما أوتي من جهد، ولهذا فإنّه يستطرد في رصد الأدلّة والشواهد المُستمدّة من مشيئة خلق الله لتدعيم هذا الرأي، فيذكر أنّ الناس جميعاً عبيد لله يخلقهم كيف يشاء، وله أن يجعل من شاء عربيّاً، ومن شاء أعجميّاً، ومن شاء قرشيّاً، ومن شاء زنجيّاً، دون أن يكون لأحدهم فضل على آخر^(٢)، وهو بهذا يعود إلى نعمته السائدة في هذه الرّسالة وهي نعمة المؤاخاة بين العناصر المؤلّفة للمجتمع العربيّ الذي يظله الإسلام بظله ويمدّ عليه جناحيه، فلا يفرّق بين عربيّ وتركيّ وخرسانيّ ومولى وبنويّ بل أصبحوا جميعاً شيئاً واحداً، ويخلص بعد ذلك إلى أنّ ما بين هذه العناصر "من خصال الوفاق غامر لما معهم من خصال الخلاف، بل هم في معظم الأمر، وفي كُبر الشّأن وعمود النّسب متفقون"^(٣).

ويختم الجاحظ رأيه في هذه القضية مشيراً إلى ظاهرة نفسيّة واجتماعيّة، تتمثّل في أنّ التّحاسد والتّنافس الذي قد يظهر بين جُند الخلافة أمر طبيعي، يحدث بين النّاس جميعهم حتّى بين المتقاربين في القرابة، والصّناعة، والمجاورة، وأشار إلى أنّ الدّنيا لا تصفو ولا تنقى من هذا الفساد، حتّى تموت جميع الخلائق^(٤)، فكأنّه هنا يريد أن يقول: إنّ من الطّبيعي أن يتصارع جُند الخلافة المتباينو الأجناس، ويفخر بعضهم على بعض بما تميّزوا به من فضائل ومناقب، كما أنّه من الطّبيعي أن يوجد من يحاول أن يفرّق بينهم، فإذا كان هذا مألوفاً بين الأقارب والجيران، فما بالنا بمن هم ليسوا من الأقارب أصلاً؟.

(١) رسائل الجاحظ، ٣٠/١ - ٣١.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ٣١ / ١ - ٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ١ / ٣٤.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ١ / ٣٤ - ٣٥.

القسم الثاني: مفاخرة الترك

بدأ الجاحظ هذا القسم من رسالته بتحديد زمن كتابته في مناقب الترك - وهو كما أشرنا آنفاً زمن المعتصم - وبتوضيح الأسباب التي جعلته يقصر حديثه على المناقب دون المثالب، مشيراً إلى انعدام الكمال في الأشياء والأشخاص، فيقول: "لكل نصيب من النقص ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ"^(١)، ودل على هذا الكلام بمجموعة من الشواهد الشعرية التي تؤكد هذا المعنى، نورد منها^(٢):

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه تلون ألواناً علي خطوبها
إذا عبت منه خلّة فتركته دعنتي إليه خلّة لا أعيبها

ويأخذ الجاحظ بعد هذا المدخل يدنو كثيراً من دائرة الموضوع الذي أنشئت الرسالة من أجله - وهو الدفاع عن الترك والتأليف بينهم وبين سائر أجناس جند الخلافة - ومثلما تحدّث عن مناقب هؤلاء الجند ومآثرهم آنفاً، ينتهي في هذا السياق مُحدّثاً عن مناقب الترك ومآثرهم أيضاً، واللافت أنّ الجاحظ جعل الأجناس الأربعة الآتية تتحدّث عن نفسها فتذكر خصالها وتعدّد مناقبها، بيد أنّه ههنا لم يجعل هذا الجنس مدافعاً عن نفسه، بل نجده يُنافح هو عنه على خلاف ما صنع مع الأجناس السابقة، ولعلّ السبب في هذا يعود إلى أنّ كلّ جنس من هذه الأجناس كان له أدباء وعلماء ومتحدّثون يتكلّمون في مناقب قومهم وميزتهم عن غيرهم، أمّا الترك فلم يكن لهم شيء من ذلك^(٣)، فالجاحظ لم يجد من يدافع عنهم ويسجّل مزاياهم، لهذا حاول أن يسدّ هذا النقص فبادر هو إلى بيان خصالهم التي اشتهروا بها وتميّزوا فيها في النواحي المختلفة، وقد استهل حديثه عنهم بذكر ما وصل إليه من أمرهم، فبدأ بنقل ما دار في أحد مجالس الخليفة المأمون العسكرية، إذ اجتمع فيه "رجال من المعدودين المتقدّمين في العلم بالحرب من أصحاب التجارب والمراس، وطول المعالجة والمعاناة في صناعات الحرب"^(٤)، ودارت في هذا المجلس مفاضلة بين الخوارج والأتراك، وقد كان هذا بطلب من المأمون نفسه، إذ أرسل إلى هؤلاء الرّجال رسولاً قال لهم: "ليكتب كلّ رجل منكم دعواه وحجته، وليقل أيّما أحبّ إلى كلّ قائد منكم إذا كان في عدّته من صحبه وثقاته: أن يلقى مئة تركي أو مئة خارجي؟"^(٥)، فأجمع كلّ من كان في ذلك المجلس عدا واحد يدعى حميد بن عبد الحميد على أنّ لقاء مئة تركي أحبّ إليهم من لقاء مئة خارجي، فالعرب - كما أشار علي

(١) رسائل الجاحظ، ١/ ٣٧.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ١/ ٣٧.

(٣) أمين، أحمد: ظهر الإسلام، ١/ ١٤٤.

(٤) رسائل الجاحظ، ١/ ٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ١/ ٤٠.

بو ملحم - كانوا" يعتبرون الخوارج أشجع الناس وأقدرهم على القتال"^(١)، وأما حميد فقد خالفهم الرأي وقال: "بل ألقى مئة خارجي أحب إلي؛ لأنني وجدت الخصال التي يفضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامة في الخارجي، ووجدتها تامة في التركي، ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلة، ثم بان التركي عن الخارجي بأمور ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلق، على أن هذه الأمور التي بان بها التركي على الخارجي أعظم خطراً وأكثر نفعاً مما شاركه الخارجي في بعضها"^(٢)، ويأخذ حميد بتدعيم موقفه المخالف لرأي غيره من القادة فيحدث عن الصفات التي فاق بها الخارجي غيره، وأولها: صدق الشدة عند أول وهلة، وثانيها: الصبر على الخيب، وعلى طول السرى، وثالثها: أن الخارجي موصوف عند الناس بأنه إذا طلب أدرك وإن طلب فات، ورابعها: خفة الأزواد وقلة الأمتعة، وخامسها: خفة أوزارهم وأثقالهم^(٣)، ويعقب حميد بعد ذكر هذه الخصال بقوله: "فهذه هي مفاخرهم وخصالهم التي لها كره القواد لقاءهم"^(٤).

وأما فيما يتعلق بالمناقب التي فاق بها التركي غيره من الأجناس، فقد تعددت جوانبها كما ذكرها الجاحظ على لسان حميد وغيره ممن أخذ عنهم، إذ تناول مناقب الترك من النواحي العسكرية، والفروسيّة، والخلقية،....، وسنحاول الآن بيان هذه المزايا والخصال كما هي مسجلة في رسالته.

إن من أبرز سمات الترك التي توقّف عندها الجاحظ تلك السمة المتعلقة بالبسالة في الحروب وحسن البلاء في المعارك، فهم يتفوقون بها على الخوارج والأعراب وغيرهم من أجناس جند الخلافة، فإذا كان الخارجي يُعرف بصدق الشدة عند الهجوم، والصبر على السير، وإدراك ما يطلب، وقلة الأمتعة، فإن التركي أحمدُ شدة، وأسرعُ حركة، وأصعبُ مرأماً^(٥)، وهم إضافة إلى ذلك يتفوقون على من سواهم في معظم المواهب العسكرية كالرمية مثلاً، وفي هذا يقول الجاحظ: "والخوارج والأعراب ليست لهم رمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل، والتركي يرمي الوحش، والطير، والبرجاس"^(٦)، والناس،....، ويرمي وقد ملأ فروج دابته مدبراً ومقبلاً، ويمنة ويسرة، وصعداً

(١) بو ملحم، علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص ٢٦.

(٢) رسائل الجاحظ، ١/ ٤١.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ١/ ٤١-٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ١/ ٤٣.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ١/ ٤٤.

(٦) البرجاس: غرضٌ في الهواء على رأس رمح أو نحوه، (انظر، شير، أدبي: الألفاظ الفارسية المعربة، ص ١٨).

وسُفلاً، ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يُفوقَّ الخارجيُّ سهماً واحداً^(١)، ويضيف في السياق نفسه: "وهم علّموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قسيّ، ومن الأوتار على حسب ذلك"^(٢).

ويشير الجاحظ إلى أنّ سبب تفوقهم في هذا المجال يعود إلى أدواتهم الحربيّة التي تفوق في صنعها أدوات غيرهم من المقاتلين، "فقناة الخارجيّ طويلة صمّاء، وقناة التركيّ مطرد^(٣) أجوف، والقنيّ المجوّفة القصار أشدُّ طعنةً، وأخفُّ في المحمل"^(٤)، وليس هذا فحسب، بل إنّ دواب التركيّ التي يستخدمها في القتال تتميّز عن غيرها، حيث تظهر مهارة التركيّ في التّعامل معها وتفوّقه على غيره من الفرسان في هذا الجانب؛ لأنّه "أحذق من البيطار، وأجود تقويماً لبرذونه"^(٥) على ما يريده من الرّاضة، وهو استنتجه، وهو ربّاه فلوّاً، وتتبعه إن سمّاه، وإن ركض ركض خلفه، وقد عوّده ذلك حتّى عرفه"^(٦)، والتركيّ أيضاً هو "الراعيّ، وهو السّائس، وهو الرّائض، وهو النّخّاس، وهو البيطار، وهو الفارس، والتركيّ الواحد أمّة على حدة"^(٧).

ويمضي الجاحظ في المفاضلة بين التركيّ وغيره من الجنود، مؤكّداً تفوّق التركيّ عليهم جميعاً، فإذا كان الخارجيُّ يفخر بأنّه إذا طلبَ أدرك، وإذا طلبَ فات، فإنّ التركيّ "ليس يُحوّج إلى أن يفوت، لأنّه لا يُطلب ولا يُرام، ومن يروم ما لا يُطمع فيه"^(٨)، وإذا كان الرّجالة (الأبناء) يفخرون بالمطاعنة على أبواب الخنادق وفي المضايق، فإنّ التّرك يفخرون كذلك بأدوارهم ومواقعهم التي اتّخذوها في الجيش، فهم "أصحاب الخيل والفرسان، وعلى الخيل والفرسان تدور الجيوش، لهم الكرّ والفرّ، والفارس هو الذي يطوي الجيش طيّ السّجل، ويفرّقهم تفريق الشعر"^(٩)، فدور الفارس التركيّ أكبر من دور الرّاجل؛ لأنّ "الرّجالة أبداً أتباع ومأمورون ومنقادون، وقائد الرّجالة لا يكون إلا فارساً، وقائد الفرسان من الممتنع أن يكون راجلاً"^(١٠)، وفي السياق نفسه يشير الجاحظ إلى أنّ الأتراك يحسنون القتال في الجهات جميعها خلافاً للخارجيّ الذي لا يُحسن القتال إلا

(١) رسائل الجاحظ، ٤٥/١.

(٢) المصدر نفسه، ٤٧/١.

(٣) المطرد: الرمح القصير (انظر، لسان العرب، مادة طرد).

(٤) رسائل الجاحظ، ٥٢/١.

(٥) البرذون: الدابة، والأنثى برذونة، وجمعه براذين، والبرادين من الخيل: ما كان من غير نتاج العراب (انظر، لسان العرب: مادة برذن).

(٦) رسائل الجاحظ، ٤٧/١.

(٧) المصدر نفسه، ٤٩/١.

(٨) المصدر نفسه، ٥١/١.

(٩) المصدر نفسه، ٥٣/١.

(١٠) المصدر نفسه، ٥٤/١.

عند الفرار أو الخراساني الذي لا يُحسن القتال إلا عند أوّل اللقاء، وفي هذا يقول: "وللتركي أربعة أعين: عينان في وجهه، وعينان في قفاه، وللخارجي عيب في مُستدبر الحرب، وللخراساني عيب في مُستقبل الحرب"^(١).

وحتى يطمئن القارئ إلى صدق ما يقوله الجاحظ وصحته، نجده يلفت نظره إلى أنّ شجاعة التركي وشدة في الحرب، وخوف الخصوم من لقائه لم يكن أمراً خافياً على أحد، بل كان يُضرب المثل في تلك الشجاعة والشدة، ففي القول المأثور: "تاركوا الترك ما تاركوكم" وهذه وصية لجميع العرب، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : "هذا عدو شديد كلبه قليل سلبه"، فنهى عن التعرض لهم بأحسن كناية، والعرب إذا ضربت المثل في العداوة الشديدة قالوا: "ما هم إلا الترك والدليم"^(٢).

ويعرّج الجاحظ على الأسباب التي جعلت التركي متصفاً بالنجدة والفروسيّة دون جميع الأمم، وعلى العلل التي من أجلها حاز جميع معاني الحرب، فيقول: "فمنها ما يُقضى لأهله بالكرم، وبيعد الهمة، وطلب الغاية، ومنها ما يدلُّ على الأدب السديد، والرأي الأصيل، والفتنة الثاقبة، والبصيرة النافذة، ألا ترى أنّه ليس بدُّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم، والحزم والعزم، والصبر والكتمان، ومن الثقافة، وقلة الغفلة وكثرة التجربة، ولا بدُّ من البصر بالخيال والسلاح، والخبرة بالرجال وبالبلاد، والعلم بالمكان والزمان والمكايد، وبما فيه صلاح هذه الأمور كلّها"^(٣).

ولما تميّز الترك في الحرب والفروسيّة ذلك التميّز الكبير، الذي فاقوا به مَنْ سواهم من أصناف الجند، صاروا في هذا الباب "كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصيّن في الصناعات وكالساسان في الملك والرياسة، ومما يستدلُّ به على أنّهم قد استقصوا هذا الباب واستغرقوه، وبلغوا أقصى غايته وتعرفوه أنّ السيف إلى أن يتقلده مُتقلد، أو يضرب به ضارب قد مرَّ على أيدي كثيرة، وعلى طبقات من الصنّاع، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عمل صاحبه، ولا يحسنه ولا يدّعيه ولا يتكلّفه؛ لأنّ الذي يُذيب حديد السيف ويُميعه، ويصفّيه ويَهْدِّبه، غير الذي يمدّه ويمطّله، والذي يمدّه ويمطّله غير الذي يطبعه ويسويّ منته، وكذلك السرج، وحالات السهم والجعبة والرُمح وجميع السلاح، ممّا هو جارح أو جُنّة، والتركي يعمل هذا كلّهُ لنفسه، من ابتدائه إلى غايته، فلا

(١) رسائل الجاحظ، ٤٥ / ١ - ٤٦.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ٧٦ / ١.

(٣) المصدر نفسه، ٧٣ / ١.

يستعين برفيق، ولا يفزع فيه إلى صديق، ولا يختلف إلى صانع، ولا يشغل قلبه بمطاله وتسويفه، وأكاذيب مواعيده"^(١).

ويبدو إعجاب الجاحظ بقوة الترك وشجاعتهم في ميادين القتال جلياً، لا لما سمعه من غيره فحسب، بل لما شاهده منهم بنفسه، الأمر الذي جعله يقرُّ للمعتصم بالحكمة والمعرفة لاختياره لهم، فيقول بعد أن سرد ما شاهده منهم في أحد المواقف: "فقلت لصاحب لي : انظر أيُّ شيء اتَّفَقَ لنا، أشهد أنَّ المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم"^(٢).

ويتحوَّل الجاحظ ليتحدَّث عن الطَّبائع والصفَّات الخُلقيَّة التي اتَّصف بها الترك فهم " قوم لا يعرفون المَلَق ولا الخِلاية"^(٣)، ولا النِّفاق ولا السَّعاية، ولا التَّصنُّع ولا النَّميمة ولا الرِّياء، ولا البَذخ على الأولياء، ولا البغي على الخطاء، ولا يعرفون البِدَع، ولم تُفسدهم الأهواء"^(٤)، والتركيُّ أيضاً " لا يخاف إلا مَخَوْفاً ولا يطمع في غير مطعم، ولا يكفُّه عن الطَّلَب إلا اليأس صرفاً، ولا يدع القليل حتَّى يصيب أكثر منه،..... والباب الذي لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً، والباب الذي يحسنه قد أحكمه بأسره وأمره وخفيُّه عنده كظاهره، ولا يتشاغل بشيءٍ ليس فيه شيء،....."^(٥).

وإضافة إلى السجاياء الخُلقيَّة الآنفه، ثمة سجاياء أخرى للترك يحسن الوقوف عليها ما دما في هذا الصدد، نذكر منها - على سبيل التمثيل - طيب المعاملة، فهم يحسنون معاملة الأسير ويكرمونه كإكرامهم ضيفهم، وفي هذا يقول ثمامة بن الأشرس: " وقد غبرتُ في أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتحفهم وأطافهم"^(٦)، ومنها أيضاً عزَّة النفس وسموها فالتركيُّ يفضل أن ينال الكفاف غصباً على أن ينال المُلْك عفواً، ولا يتهنَّى بالطَّعام إلا إذا كان صيداً أو مغنماً، ولا يُغلب على ظهر دابته طالباً كان أو مطلوباً^(٧)، وغيرها من السجاياء الخُلقيَّة والعسكريَّة الشيء الكثير، فالناظر في هذه الرِّسالة يلحظ استغراق الجاحظ في ذكر مناقب الترك ومآثرهم، إذ تتتالي هذه المناقب في إثر بعضها، ولا يكاد القارئ يخلص من منقبة حتى تلقاه الأخرى، ويبدو جلياً أنه كان يرمي من كلِّ هذا إلى تحقيق غايته في إقامة الترك ركناً قوياً بين أركان جنود الخلافة في الدولة العباسيَّة، فهم - في نظره - لا يقلُّون شأنًا عن غيرهم في الشَّجاعة والبطولة.

(١) رسائل الجاحظ، ٧١ / ١ - ٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ٦٢ / ١.

(٣) الخِلاية: المخادعة (انظر، لسان العرب، مادة خلب).

(٤) رسائل الجاحظ، ٦٢ / ١.

(٥) المصدر نفسه، ٥٩ - ٦٠.

(٦) المصدر نفسه، ٦١ / ١.

(٧) انظر، المصدر نفسه، ٥٩ / ١.

وينوّه الجاحظ عقب ذلك إلى أمر مهم يعدُّ - في رأيه - من عيوب الترك وهو الحنين إلى الوطن وحبّ الرجوع إليه، فيقول: "وإنّما كان عيبهم، والذي يُوحِش منهم الحنين إلى الأوطان، وحبّ التّقلُّب في البلدان، والصّبابة بالغارات، والشّغف بالنّهب، وشدّة الإلف للعادة، مع ما كانوا يتذكرون من سرور الظّفر وتتابعه، وحلاوة المغنم وكثرتة،....." (١).

وعلى الرغم من أنّ محبة الوطن شيء شامل لجميع الناس، إلا أنّها - في نظر الجاحظ - في الترك أغلب وأرسخ وأشدّ، وفي سبيل زيادة هذا الأمر جلاء يورد العلل التي تدفع التركيّ إلى الحنين والرجوع إلى الوطن، وأولها: "إنّ في تركيبهم وأخلاق طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم، ومشكلة مياهم ومناسبة إخوانهم، ما ليس مع أحد سواهم" (٢)، ولهذا خُصّوا بالحنين من بين جميع العجم، وثانيها: "أنّ الترك قوم يشتدّ عليهم الحصر والجُثوم، وطول اللّبث والمُكث، وقلة التّصرّف والتحرّك، وأصل بنيتهم إنّما وُضِعَ على الحركة، وليس للسّكون فيها نصيب، وفي قوَى أنفسهم فضل على قوَى أبدانهم،..... وكانوا يرون الكفاية معجزة، وطول المقام بلادة، والراحة عقلة، والقناعة من قصر الهمة، وأنّ ترك الغزو يورث الدّلة" (٣)، أمّا العلة الثالثة فتتعلّق بتمييزهم العسكريّ، فيقول: "ومن أعظم ما كان يدعّوهم إلى الشّroud ويبعثهم على الرّجوع، ويكرّه عندهم المُقام، ما كانوا فيه من جهل قوّادهم بأقدارهم،..... حتّى جعلوهم أسوة أجنادهم، ولم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة، وفي غمار العامّة ومن عُرِض العساكر، وأنفوا من ذلك لأنفسهم، وذكروا ما يجب لهم، ورأوا أنّ الضّيم لا يليق بهم، وأنّ الخمول لا يجوز عليهم، وأنّهم في المُقام على من لا يعرف حقّهم ألوم ممّن منعهم حقّهم" (٤).

وينبّه الجاحظ في هذا السّياق إلى دور المعتصم في تقدير الترك، وإنزالهم المنزلة التي يستحقّونها، ممّا جعلهم يؤثرون الإقامة، ويعدلون عن الرّجوع إلى أوطانهم، فيقول: "فلمّا صادفوا ملكاً حكيماً، وبأقدار النّاس عليماً .. أقاموا إقامة من قد فهم الحظّ، ودان بالحقّ ونبذ العادة، وآثر الحقيقة، ورحل نفسه لقطيعة وطنه،....." (٥).

وبعد أن بسط الجاحظ الحديث في مناقب الترك وتمييزهم عن غيرهم من الأجناس لاسيّما من النّاحية القتاليّة، وما يتّصل بها من جوانب ماديّة ومعنويّة أبدى موضوعيّة في كلّ ما قال، حيث

(١) رسائل الجاحظ، ١/ ٦٢ - ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ١/ ٦٦.

(٥) رسائل الجاحظ، ١/ ٦٦ - ٦٧. ورحل نفسه لكذا صبر على أذاه.

أشار إلى أن تقدّم الترك في هذا الجانب لا يعني أنهم فاقوا الأمم الأخرى في كل شيء، وإنما لكل أمة من الأمم باب من العمل تميّزت به عن غيرها، لما سخره الله تعالى لها من الأسباب والعلل، فقال: "ثم اعلم بعد هذا كله أن كل أمة وقرن، وكل جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات، وفضلوا الناس في البيان، أو فاقوهم في الآداب، وفي تأسيس الملك، وفي البصر بالحرب، فإنك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية، إلا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور، وتصلح لتلك المعاني"^(١).

وبيّن الجاحظ أن التميّز والتقدّم في جانب من الجوانب يتطلب التركيز على هذا الجانب وبذل الوسع في إتقانه دون غيره؛ ذلك لأن "من كان متقسّم الهوى، مشترك الرأي، ومتشعب النفس، غير موّفر على ذلك الشيء ولا مهياً له، لم يحقّ من تلك الأشياء شيئاً بأسره، ولم يبلغ فيه غايته، كأهل الصين في الصناعات، واليونانيين في الحكم والآداب.... والأتراك في الحروب، ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تجّاراً ولا صنّاعاً بأكفّهم ولا أصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس... فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة، وقوة وافرة، وأذهان فارغة، حتّى استخرجوا الآلات والأدوات،....."^(٢).

ويرى أيضاً أن إتقان أمة من الأمم جانباً من الجوانب لا يعني أن كل أهل تلك الأمة متفوقون في ذلك، وفي هذا المعنى يقول: "وليس أنه ليس في الأرض تركي إلا وهو كما وصفنا، كما أنه ليس كل يوناني حكيماً، ولا كل صيني غايّة في الحق، ولا كل أعربي فائقاً، ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأتم، وهي فيهم أظهر وأكثر"^(٣).

خاتمة الرسالة:

أشار الجاحظ - مرّة أخرى - في خاتمة رسالته إلى أن غايته منها تتمثل في الحديث عن مناقب الترك وعامة جند الخلافة، وذكر ما انتهى إليه وبلغه علمه في هذا المجال، وأكد أن هدفه التّجميع والتّقريب بين الأجناس التي تحدّث عنها، ولهذا لم يتبع سبيل كتب المناقضات أو كتب المسائل والجوابات؛ لأنّه لو اتّبع ذلك "لكان كتاباً كبيراً، كثير الورق عظيماً.. ولكننا رأينا أن القليل الذي يُجمع خير من الكثير الذي يُفرّق، ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب"^(٤).

ولقد سبق أن ذكر الجاحظ ما ضمّنه في الخاتمة من اقتصار حديثه على ذكر المناقب ومنهجه في ذلك غير مرّة في رسالته، وكرره في مواضع عدّة منها كما أسلفنا سابقاً.

(١) المصدر نفسه، ١/ ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٦٧ - ٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٧٣.

(٤) رسائل الجاحظ، ١/ ٨٦.

أثر ثقافة الجاحظ في البناء الفني للرسالة:

يستطيع دارس هذه الرسالة أن يقف على بنائها المحكم وتتوَّع ظواهرها الأسلوبية، وما يحمله هذا البناء وتلك الظواهر من دلالة واضحة على سعة ثقافة هذا الرجل الذي "ألم بكل ما اتسع له عصره من ألوان العلوم والمعارف، وانفعل بها عقله وزكاؤه النادر"^(١)، ففي هذه الرسالة نتبين الجوانب المتعددة من ثقافة الجاحظ ومعرفته الواسعة في شؤون المجتمع، وطبائع الناس وعاداتهم وتقاليدهم، كما نتبين تفقهه باللغة وإحاطته الواسعة بمفرداتها واستنباطه لأسرارها، ولعل هذا من شأنه أن يدفعنا إلى أن نعدّ هذه الثقافة سبباً في قدرة الجاحظ على عرض موضوعه عرضاً منطقياً، ونجاحه في إضفاء قدر من التميّز الفني على رسالته.

فمن يُمعن النظر في هذه الرسالة يُدرك مدى اهتمام الجاحظ بإصلاح أحوال المجتمع وتفسير ظواهره الاجتماعية وتحليل أسبابها، إذ تقوم هذه الرسالة على مسألة هي مدار اهتمامه ألا وهي محاولة المساواة بين العناصر المتباينة في المجتمع العباسي، ويبدو أن هذه المسألة تمثل جزءاً من مسألة أوسع هي قضية الأجناس المختلفة ومركزها الاجتماعي، الأمر الذي جعل محمد زغلول سلام يعدّ هذه الرسالة حلقة من حلقات دراسة الأجناس^(٢)، ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا: إنها تشكّل باباً من أبواب علم الاجتماع، فالخلافة العباسية لم تكن مجرد تبديل في الأسرة الحاكمة بل أدّت إلى تغيير جذري في العلاقات الاجتماعية لا سيما بين العنصرين العربي والأعجمي، وقد أحسّ الجاحظ بهذا التغيير فحاول أن يقف عليه في رسالته ليحدّ من خطره، ساعده في ذلك معرفته الكبيرة بطبقات المجتمع وفئاته المتنوعة وما يدور بينها من خلافات وصراعات، لا سيما بين الأجناس المتباينة، لهذا تحدّث عنها - كما مرّ بنا - حديثاً مفصلاً دلّ على ثقافة واسعة ومعرفة عميقة بطبائع المجتمع والأجناس التي تشكّل منها، فمن الواضح أنه لو لم يكن على هذا القدر من المعرفة بشؤون المجتمع وطبائع الناس لما استطاع أن يفصّل القول فيما تميّز به جند الخلافة من عادات وتقاليده وفضائل متعدّدة: عسكريّة، وخلقية، وخلقية وغيرها.

وجانب آخر من جوانب ثقافة الجاحظ يظهر في غزارة مخزونه اللغوي، وذلك من زاويتين: الأولى: الإلمام باللغتين العربية والفارسية وتوظيف بعض الألفاظ الفارسية في رسالته،

(١) بليغ، عبد الحكيم: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٧٥، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) انظر، سلام، محمد زغلول: دراسات في الأدب العربي "العصر العباسي"، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط.)، (د.ت.)، ص ٤٦٦.

نحو: الزَّغْنَدِيَّة، والآزَازِمَرْدِيَّة، والطَّبْرَزِينَات، والبركار...^(١)، ولا غرابة في ذلك فالجاحظ واحد من الكتاب القلائل الذين أنضجت عقولهم وأخيلتهم ثقافات مختلفة عربيَّة وفارسيَّة ويونانيَّة، وكونت لديهم ميراثاً هائلاً من المعاني والألفاظ.

وأما الزَّراوية الثانية من ثقافته اللُّغويَّة فتظهر في معرفته ببعض اللهجات، وذلك في تعليقه على مفردة وردت في أحد الأخبار التي ذكرها، فقال: "قوله "وأطلع" يريد: وأنزل، وهي لغة أهل الشام، وأخذوها من نازلة العرب في أوَّل الدهر"^(٢).

وليس هذا أكثر دلالة على سعة ثقافته من معرفته بالحيوانات وأصواتها، فعلى الرغم من أنَّ موضوع الرِّسالة في الأجناس ومفاخرها، غير أنَّ معرفة الجاحظ بالحيوانات بدت واضحة فيها، ففي حديثه عن مهارة التُّركيِّ في التَّعامل مع فرسه أشار إلى بعض الأصوات التي تُتأدى بها الحيوانات، فقال: "كما يعرف الفرس أقدم، والنَّاقة حل، والجمال جَاه، والبغل عَدَس، والحمار ساسا"^(٣)، ونحن نجد مثل هذه المعرفة أيضاً عندما نقف على حديثه عن الذَّرَّ وآلية عمله في جمع الطَّعام وتخزينه^(٤).

وإننا لنستطيع أيضاً أن ندرك مدى عمق ثقافته وسعة اطلاعه حينما يتحدث عن المهن والصناعات التي اختصت بها الأمم المختلفة، فالجاحظ ينسب إلى كلِّ أُمَّة من هذه الأمم نوعاً من التخصص في حقول العلم أو المعرفة، فالليونانيون كانوا أصحاب حكمة وفلسفة، والصينيون أصحاب صناعة وعمل، والعرب أصحاب شعر وبلاغة، والفرس أصحاب سياسة وإدارة، والتُّرك قوَّاداً وجنوداً، وتقسيم الجاحظ هذا مهم لا في قضية تخصص كلِّ أُمَّة في العمل والمعرفة وحسب، بل لأنَّ عناصر الحضارة الإسلامية التي عرفها عصره تتمثَّل فيه، كما أنَّه يعطينا انعكاساً واضح المعالم لتفكير هذا العصر وثقافته، وصورة لاهتمامه الشخصي ومدى اطلاعه^(٥)، ويمكننا أن نورد المثال الآتي لتنبُّين من خلاله كيف استطاع الجاحظ أن يصدر حكمه على المهن المختلفة وعلى التخصص الذي اشتهرت به كلُّ أُمَّة بعقلية الخبير المتأثِّر بعوامل عصره ومجتمعه، إذ يقول: "وكذلك العرب لم يكونوا تُجَّاراً ولا صُنَّاعاً، ولا أطباء ولا حُساباً، ولا أصحاب فلاحه، فيكونوا

(١) انظر، رسائل الجاحظ، ١/ ١٥، ٢٠، ٦٨. ومعنى "زغند" في الفارسيَّة: صوت الحيوان الوحشي، وكلمة "الآزَازِمَرْدِيَّة" تعني: لقب يطلق على الأشراف من الفرس (فسر عبد السلام هارون هذه الكلمات في هامش الصَّفحات المذكورة)، وكلمة "الطَّبْرَزِينَات": جمع طبرزين، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس، وكلمة "البركار" تعني: آلة هندسية مركبة من ساقين متصلين تنبَّت إحداهما وتدور حولها الأخرى، ترسم بها الدوائر والأقواس (انظر، شير، أدبي: الألفاظ الفارسيَّة المعرَّبة، ص ١١١، ٢٠).

(٢) رسائل الجاحظ، ١/ ٨٣.

(٣) رسائل الجاحظ، ١/ ٤٧ - ٤٨.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ١/ ٨٤ - ٨٥.

(٥) انظر، النجم، وديعة طه: الجاحظ والحاضرة العباسية، مطبعة الإرشاد، بغداد، (د.ط)، ١٩٦٥، ص ٥٠.

مهنة، ولا أصحاب زرع، لخوفهم صغار^(١) الجزية، ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب، ووجهوا قواهم لقول الشعر، وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام، وكذلك الترك، لم تشغلهم الصناعات والتجارات، والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرس ولا بُنيان، ولا شق أنهار، ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغارة والغزو والصيد، وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال، وطلب الغنائم، وتدويخ البلدان، وكانت همهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مُسخرة ومقصورة عليها، ... وصار ذلك هو صناعتهم وتجاريتهم، ولذتهم وفخرهم، وحديثهم وسمرهم^(٢)، وآية هذا كله، أن عقل الجاحظ اتسع لكل ما هو حوله، فهو يرصد كل ما هو معروف في مجتمعه، وتستغرق معرفته وثقافته كل ما زخر به عصره من ألوان العلوم والآداب والفنون والفلسفات.

وتكشف لنا هذه الرسالة - كغيرها من مؤلفات الجاحظ - عن ثقافته الكلامية والاعتزالية، وذلك لاعتماده عند حديثه عن مناقب جُند الخلافة على المفاخرة والمنهج الجدلي الذي يعدُّ من أشهر الأساليب التي استعان بها المعتزلة - والجاحظ من أشهرهم - في محاوراتهم ومناظراتهم، لإثبات مبادئهم ومعتقداتهم الخاصة^(٣)، فقد تبيّن من خلال هذا المنهج القائم على البراعة في دعم الموضوع بالأدلة والحجج المُقنعة مقدار ما كان يتمتع به الجاحظ من عقلية جدلية مكنته من أن يتكلم عن الأشياء المتباينة بمستوى واحد من القوة والإجادة، ونحن نلمس هذا الجانب من ثقافته حينما يسوق العلل والأسباب والحجج لتفسير المواقف والآراء التي أوردها في رسالته، وعندما يوظف فيها مجموعة من المفردات، نحو: العلل، والسبب، والاحتجاج، والاستقصاء^(٤)، والتي تدلُّ - إلى حدٍّ ما - على أن الجاحظ نهل من ثقافة المعتزلة فأمدته بهذا الزاد الذي أكسبه القدرة على أن يطبع كتاباته بطابع جدلي برهاني.

وبالمثل تبدو ثقافة الجاحظ جلية إذا ما نظرنا إلى بعض السمات الأسلوبية التي وظفها في رسالته، فمن ذلك توظيف الموروث الديني والأدبي، والميل إلى ظاهرة التنبُّع والاستقصاء، أمّا توظيفه الموروث الديني والأدبي فجاء في سياق عرضه الآراء والأخبار التي ضمّنها رسالته، إذ حاول تأكيد مواقفه وآرائه المتباينة مستعيناً بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فمن توظيفه

(١) الصغار: الذلّ والضميم (انظر، لسان العرب، مادة صغر).

(٢) رسائل الجاحظ، ١/ ٦٩ - ٧١.

(٣) يُنظر في اعتماد المعتزلة والمتكلمين على الجدل في كتاب: بليغ، عبد الحكيم: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٣، (د.ت)، ص ٢٠٣ - ٢٢٠، وفي كتاب: بو ملحم، علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص ١٠٨.

(٤) كانت كلمة "العلل" أكثر هذه المفردات استخداماً في الرسالة، يُنظر ، رسائل الجاحظ: ١/ ٢٣، ٥١، ٥٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٣.

للقرآن الكريم استحضاره لقوله تعالى: "وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ"^(١) ولقوله: "مَلَّةٌ أَبْيَكُمُ إِِبْرَاهِيمَ"^(٢)، وقد جاء توظيف هاتين الآيتين في معرض سوقه الأدلة على أنَّ الأجناس وإن كانت متباينة فإنَّها تتصل بسبب من الأسباب وتتقارب فيما بينها. ومن الأمثلة على توظيفه للأمثال ما جاء في سياق حديثه عن شدة عداوة الترك، وشدة حنينهم للأوطان^(٣)، أمَّا الشعر فقد وظفه في مواطن متعدّدة من الرسالة، لاسيما عندما أشار إلى أنه من غير الممكن الاتّصاف بالمحاسن والخلو من المساوي^(٤).

وأما ظاهرة التتبّع والاستقصاء، أو "التبسُّط والإطناب في تصوير الفكرة" كما يسميها عبد الحكيم بلبع^(٥)، أو "الشمولية" كما يسميها علي بو ملحم^(٦)، فإننا نجدها واضحة أشدّ الوضوح في هذه الرسالة، وقد أظهرت هذه السمة الأسلوبية ثقافة الجاحظ الواسعة، حيث كان "يحشد للفكرة الواحدة ضروبا من الصور المختلفة التي تحدّها وتوضّحها وتنقلها إلى القارئ كما هي ماثلة في خاطره متصورة في ذهنه"^(٧)، ولسنا نريد في هذا المقام أن نفصل القول في هذه الظاهرة، وإنما الذي نريده هو أن نشير إلى أنَّ الجاحظ استطاع بسعة ثقافته وشموليته أن يحيط الفكرة الواحدة بطائفة من الصور التي تتصل بها وتوضّحها، ولعلّ خير ما يمكن أن نستشهد به في هذا السياق هو ما ساقه الجاحظ من صور عندما أراد إثبات التقارب بين جُند الخلافة ورجوعهم إلى أصل واحد على الرغم من تباين أصولهم، إذ حشد أدلة كثيرة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تؤكد ما ذهب إليه، لكنه لم يكتف بهذا القدر من الأمثلة والشواهد، بل ضرب مثالا من الطبيعة حاول أن يبرهن به على وجود أصل واحد للفروع المختلفة مؤكداً بذلك رأيه في تساوي الأجناس المتباعدة، فقال: "وما الذي قسم الله - عزّ اسمه - بين الناس من ذلك، إلا كما صنع في طينة الأرض، فجعل بعضها حجراً، وبعض الحجر ياقوتا، وبعضه ذهباً، وبعضه نحاساً، وبعضه رصاصاً، وبعضه حديداً، وبعضه تراباً، وبعضه فخاراً، وكذلك الزّاج، والمغرة، والزّرنخ، والمرتك، والكبريت، والقار، والتوتيا، والنوشادر، والمرقشيثا، والمغنطيس"^(٨). وفي هذا المثال أيضاً تظهر معرفته بالطبيعة وما فيها من عناصر كيميائية وفيزيائية نجدها تحتاج إلى متخصص يوضّحها.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

(٢) سورة الحج، الآية ٧٨.

(٣) انظر، رسائل الجاحظ، ١/ ٤١، ٦٦. وقد عرضنا بعض الأمثال عند الحديث عن مناقب الترك في الصفحة "٢٤" من هذا البحث.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ١/ ٣٧، ٣٨، ٤٣، ٤٤، ٥٤، ٥٥، ٥٩، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٨٣.

(٥) بلبع، عبد الحكيم: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص ٢٩٧.

(٦) بو ملحم، علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص ٣٠٣.

(٧) بلبع، عبد الحكيم: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص ٢٩٧.

(٨) رسائل الجاحظ، ١/ ٣٣ - ٣٤.

وتتضح - أيضاً - هذه السمة الدالة على سعة ثقافة الجاحظ وشموليته في مجمل الرسالة، حيث كان يفصل في الشواهد والأمثلة التي يضربها تأكيداً لآرائه ومواقفه، وليس أدل على ذلك من تفصيل القول في الجوانب الحربية والقتالية للترك كما مرّ بنا آنفاً.

وصفوة القول: إنّ الجاحظ وصل إلى درجة عالية من الثقافة والعلم، وألمّ بحقول المعرفة المختلفة من فلسفة وكلام ودين وأدب واجتماع وتاريخ وسياسة وحيوان ونبات وطبيعيات استطاع أن يوظفها بأسلوب مُحكم في هذه الرسالة، ولهذا جاءت على النحو الذي نراه من النضج والكمال.

الخاتمة:

يمكننا بعد الانتهاء من هذا البحث الذي تناول بالدراسة والتحليل رسالة "مناقب الترك وعامة جند الخلافة" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إجمال بعض ما ظهر لنا من نتائج في النقاط الآتية:

١ - شكّل حديث الجاحظ عن مناقب وفضائل الأقوام الذين ذكرهم في رسالته أحد الموضوعات الاجتماعية والسياسية التي دار حولها الجدل في المجتمع العباسي آنذاك، إذ إنّ تمازج الأجناس غير العربية ومشاركتها العرب في الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية ولّد صراعاً بين هذه الأجناس دار الحديث حوله في مجالس العامة والخاصة.

٢ - شكّل الحديث عن المناقب والفضائل الفكرة الرئيسة التي دارت حولها الرسالة بجزأها: الأول الذي كتبه الجاحظ زمن المعتصم وقصر الحديث فيه على مناقب الترك، والثاني الذي تحدّث فيه عن مناقب عامة الجند، وذلك زمن المتوكّل، ونظراً لاختلاف الزمن في كتابة الجزأين اختلف أسلوب الجاحظ أيضاً، حيث عرض في الجزء الأول مناقب الجند في صورة مفاخرة أجراها على لسان رجل منهم، معدداً ما تميّزوا به من مناقب وفضائل، وأمّا الجزء الثاني (مناقب الترك) فقد سرد هو الحديث فيه عن الفضائل والمناقب التي اتّصف بها الترك مستعيناً بما لديه من آراء وأخبار سمعها أو شاهدها.

٣ - يعدّ فن المفاخرة الذي بُنيت عليه الرسالة واحداً من أبرز الأساليب التعبيرية الجديدة التي وظّفها الجاحظ في رسائله بغية الابتعاد عن القوالب الفنية التقليدية التي ألقت بظلالها على فن الرسائل في عصره.

٤ - بدت ثقافة الجاحظ الواسعة في ميادين المعرفة المختلفة: السياسية، والاجتماعية، والاعتزالية جلية في هذه الرسالة، وذلك من خلال الحديث عن محور رسالته حديثاً مفصلاً وظّف فيه معارفه الدينية والأدبية والفكرية.

٥ - يُلاحظ في هذه الرسالة غياب بعض السمات الأسلوبية التي ألفناها في كتابات الجاحظ، كالسخرية مثلاً، إذ لم نجد في هذه الرسالة ظهوراً لها، وقد يكون لطبيعة الموضوع دور في هذا، وأمّا الاستطراد فلم يتّضح سوى في موضع أو موضعين، ولم يكن طويلاً، وإنّما جاء قصيراً، وقد ظهر في حديثه عن إتقان كلّ جنس من الأجناس باباً من أبواب العلم والمعرفة، فمثّل على ذلك بإتقان اليونانيين الحكمة والأدب، ثم انتقل للحديث عن الصينيين وعاد بعدها للحديث عن اليونانيين.

